تساؤلات وملاحظات منهجية لكتابة تاريخ

الولاية الرابعة (1954 - 1962)

الأستاذ الغالي غربي

إن هذه المساهمة، ليست سردا لأحداث تاريخية شهدتها الولاية الرابعة في حقبة زمنية ليست ببعيدة وإنما هي نقاط منهجية مقترحة لمن يريد أن يؤرخ لهذه المنطقة ويعيد نسج أحداثها. وكلنت هذه النقاط وليدة الصعوبة والمشقة التي يصادفها كل من يحاول استعراض المعطيات والمحطات التاريخية الكبرى التي علشتها المنطقة إبان الحركة الوطنية والثورة التحريرية. فما كتب لحد الآن لا يعدو أن يكون درسات محتشمة ذات نظرة سطحية وأحكام علمة وتفسيرات شمولية، مما يضفي الغموض والضبابية على كثير من الأحداث البارزة، التي مازالت تحتاج إلى توضيح واستبيان. لهذا فإن هذا النوع من الكتابات، لا يمكن أن يساعد المؤرخ والباحث على بناء العملية التاريخية برمتها، باعتبار ان الكثير من الحلقات مازالت مفقودة وضائعة، خاصة وأن غالبية هذه الكتابات منلسباتية يغلب عليها الطابع الحماسي العاطفي، مما يبعدها عن الموضوعية والدقة العلمية.

وبغم تنوع الكتابات التاريخية الفرنسية الخاصة بتاريخ الجزائر في فترة الإحتلال والثورة التحريرية في شكل أرشيفات حكومية ومقالات صحفية وتقارير ومذكرات سياسية وعسكرية وكتب أكاديمية ودعائية،وباختلاف مشاربها الإيديولوجية، إلا أن متفحصها، يجد أنها أرّخت لتاريخ الفرنسيين في الجزائر، وبذلك أهملت الجانب الجزائري، وهو الطرف الأساسي في تلك الثنائية التصادمية التي ميزت للتاريخ الجزائري منذ أن وطئت لأقدام الفرنسيين أرض الجزائر عام 1830. زيادة على ما يميز هذه الدرسات من خلال إصرار أصحابها على ترديد أطروحات المدرسة

التاريخية الفرنسية الإستعمارية، إنطلاقا من تزييف للحقائق التاريخية وتبييض جرائم الإستعمار الفرنسي وأعمال الإبادة والدمار التي مارسها جنرالات وسلسة فرنسا في الجزائر ك "بليسيه و بلندون و بيجو و سالان و شال و بيجار"...الخ، و بذلك افتقاد هذه الدراسات للنزاهة و الموضوعية العلمية، إلا أن هذا ليس معناه الحط من قيمة هذه الكتابات و الدرلسات و أهميتها في عملية كتابة تاريخنا الوطني، فإلى جانب إحتوائها على معلومات و أحداث و تفسيرات و إحصاءات و أرقام و تحاليل متنوعة، كتبت أيضا من طرف صحافيين و عسكريين و رجال سيلسة و أطباء و رجال مخابرات، كانوا على صلة بالحدث للتاريخي. لهذا لا يمكن بأي حال من الأحوال الإستغناء عنها بحجة أنها تجسد الطرف الآخر، ولكن علينا أن نأخذ بأحكامها ولستنتاجاتها بتحفظ وحذر شديدين بعد أن نكون قد قمنا بعملية غربلة هذا الكم الهائل من المعلومات وتدقيقه وغربلته.

أما ما كتبه الجزائريون، فهو قليل إذا ما قورن بما كتبه الفرنسيون، وما زالت الكتابات التاريخية الجزائرية محتشمة في حاجة إلى الجرأة والإنطلاق وتكسير حواجز الطابوهات التي حاول البعض إقناعنا بها بحجة المحافظة على المصلحة والوحدة الوطنية، مما جعل كتابتنا حبيسة رؤى وأطر ومفاهيم أضحت عاجزة على إرواء عطش شبابنا في معرفة دقائق وخفايا تاريخه الوطني بأقلام جزائرية وطنية وتحول دون إحتوائه وإستيلابه من تأثيرات الكتابات الأجنبية المغرضة التي تشكك في مقومات تاريخنا الوطني.

نعود إلى المصاعب والإشكالات التي تعترض من يحاول دراسة أحداث الولاية الرابعة إبان الثورة التحريرية، والتي يأتي على رأسها:

1 - قلة المصادر والمراجع التاريخية فرنسية كانت أو جزائرية، بالإضافة إلى صعوبة الوصول إلى للأرشيف الفرنسي، وتشتت الأرشيف الجزائري المتعلق بالثورة عند المجاهدين وقادة الثورة العسكريين والسياسيين. ولسد هذا النقص، ظهرت محاولات جادة مثل االدراسة القيمة والوحيدة Mohamed Teguia : l'Algérie En Guerre، الذي يعتبر من أهم الكتب الأكادمية العلمية التي تطرقت لتاريخ الولاية الرابعة. أوما كتبه النقيب: Azzedine Zerari: Les Fellagas و Alger ne Brûlera pas . وكتاب الرائد سي لخضر بورقعة: "شاهد على إغتيال الثورة". أو شهادة العقيد يوسف الخطيب في كتاب "بطلان يتحدثان" الصادر مؤخرا عن دار مارينور. زيادة على مجموعة قليلة من المقالات المنشورة في مجلة أول نوفمبر. وما عدا ذلك فإن بقية الدراسات تطرقت للولاية الرابعة في إطار ثورة التحرير عامة.

2 - صعوبة الإستفادة من المادة التاريخية الموجودة في التقارير الجهوية المقدمة للملتقيات الوطنية لتسجيل وقائع وأحداث الثورة التحريرية. لأنها لا تزال مادة خام تحتاج إلى كثير من التنقيح والتوثيق والتدقيق من طرف الباحثين، بما قد تحتويه من نقائص وإختلافات وفي بعض الأحيان تناقضات. زيادة على هشاشة لمعلومات وسطحيتها بسبب الظروف الضاغطة التي كتبت أثناءها هذه التقارير، وبسبب المنهجية التي إتبعتها، والمتمثلة في الترتيب الكرونولوجي 54-56.56-58 ...إلخ. مما جعل

مضامينها لا تعدو سوى سرد لأحداث متتالية دون ربطها مع بعضها للبعض فجاءت في شكل عموميات ليس أكثر.

3 - تحفظ وتردد المجلهدين وقادة للثورة التحريرية في الإدلاء بشهاداتهم الحية وبخاصة في المواضيع الحسلسة والشائكة، للتي يمكن إعتبارها سمة علمة عرفتها للثورات العالمية في مساراتها التاريخية وهذه الإشكالية ترغم البلحث أو المؤرخ على الإرتكان للرولية أو الشهادة أو وجهة النظر الفرنسية، محاولة عنه لسد الفجوات والثغرات الضائعة، ولاندري ما الخلفيات التي تمنع هؤلاء المجاهدين والقادة في المساهمة في كتلبة تاريخ ثورتهم وتصويبه وتصحيحه من التشويه الذي ألحق به.

كل هذه المعطيات الآنفة للذكر للتي يصادفها البلحث الرلغب في التأريخ للولاية الرابعة كفيلة بعدم تشجيع هذا الأخير في خوض غمار البحث للتاريخي ومتاهلته، لأنه يعتبر بالنسبة إليه بمثلبة مغامرة غير مضمونة العولقب، أو كللداخل لمعركة بدون سلاح، ولا دولية له بمعطيات المعركة: الموقع، التضاريس، الطبوغرافية، المناخ ..إلخ. وكلنت نتيجة هذا الإحجام والنفور من جانب الباحثين في درلسة تاريخ الولاية الرلبعة، أن تحول للتاريخ للوطني والجهادي لرجالاتها ومناضليها، مرتعا خصبا للأقلويل المغرضة والأحكام المسبقة والمتسرعة، ومن ثمّ تعميق ثقلفة النسيان والتشكيك في صدق القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية النبيلة التي آمن بها هؤلاء الرجال ـــللذين لبولنداء الجهاد المقدس في غرة أول نوفمبر ـــ ورلحوا يتصدون بعزيمة قوية لآلة للدمار والخراب والإبادة للتي مارستها عليهم الإدارة

الإستعمارية، ويضعون بذلك حدا لأطول لستعمار عرفته الشعوب في العصر الحديث.

ورغم أن تاريخ الولاية الرابعة إبان الثورة التحريرية زاخر بالأحداث التاريخية الجسام وما رافق هذه الأحداث من مآسي ومحن من جراء سياسة الأرض المحروقة والحرب النفسية وعمليات شال الجهنمية، بقي هذا التاريخ بسجله الناصع ورجاله عرضة للسهام الحاقدة من أبناء هذا الوطن. وقد يفسر هذا التطاول من طرف البعض على تاريخ المنطقة، إلى بعض الإشكالات والإستفهامات والفجوات، والغموض والضبابية التي ميزت تاريخ مسيرة الكفاح المسلح في الولاية الرابعة 1954-1962. وزاد صمت وإحجام صناع الحدث من أبناء المنطقة في دحض وتفنيد بعض الأحكام والآراء، إلى ترسيخ النظرة السوداوية للتاريخ الوطني في أذهان بعض العينات من جيل أول نوفمبر. ويمكن إجمال هذه الإشكالات فيما يلي:

1 - ما هي خلفيات ما يعرف في التاريخ "بسلم الشجعان"؟ ،هل سبب توتر العلاقة بين الحكومة المؤقتة وقيادة الولاية الرابعة، نتيجة الوضع المأساوي الذي بدأت تعيشه الولاية من جراء العزلة المفروضة عليها والمضايقات التي كانت تعترضها في تموين نفسها بالسلاح بماذا نفسر الإزدواجية في التعامل من طرف قيادة الولاية الرابعة، بتسليط عقوبات على البعض دون البعض الآخر.

2 - بماذا نفسر نجاح جهاز المخابرات الفرنسية وعملاءه في اختراق أجهزة الولاية الرابعة؟ هل هذا مرجعه إلى عدم مقدرة هذه الأجهزة على التصدي

ومجارات مثيلاتها الفرنسية، أم للتهاون؟ وكلنا يعرف النتائج الوخيمة للتي رافقت هذا الإختراق، مثل التصفيات التي راح ضحيتها عدد من المجلهدين وإطارات جيش التحرير.

3 ـ ماهي الظروف للتي أحلطت باستشهاد سي أمحمد بوقرة في أولاد بوعشرة؟ وما مدى مسؤولية اليد الحمراء في ذلك؟

4 ـ من هي الجهة المسؤولة على اسشهاد سي الطيب الجغلالي؟ هل هي فرنسا؟ أم بعض قيادات الولاية السادسة التي كانت رافضة لتعيينه كقائد على الولاية؟ فسارعت إلى التخلص منه، وما علاقة هذا الحادث بالمصير البشع الذي تعرض له علي بن مسعود.

5 ـ ماهي الأسباب في تباطؤ قيادة الولاية الرابعة، في تصفية الخائن الشريف بن السعيدي؟ وماهي صحة بعض الرويات للتي تؤكد استعانة هذه القيادة ببعض الوسائل المادية المقدمة لها من عند هذا الخائن .

6 - وممّا لا نجد له تفسير مقنع، وجود أشخاص تقلدوا مناصبا قيادية في الولاية أغلبيتهم من جهة واحدة، ونقصد بها الولاية الثالثة. هل هذا راجع إلى خلو الولاية من إطارات كفأة قادرة على التخطيط وإدارة شؤون الحرب والحكم، أم إلى إعتبارات أخرى.

7 - وغم للدور الريادي للذي لعبه الطلبة للثانويون إبان للثورة التحريرية، وبصفة خاصة في الولاية الرابعة، إلا أن بعض المصادر تشير إلى المضايقات وفي بعض الأحيان التصفيات للتي تعرضت لها هذه الفئة المثقفة من طرف العسكريين المتحاملين عليهم.

هذه بعض الإشكالات التي لا نجد لها إجابات شافية ومقنعة فيما كتب لحد الآن عن تاريخ الولاية الرابعة، والتي نرى الإجابة عليها من قبل صناع الحدث من أولى الأولويات الملقاة على عاتقهم، والتي نتمنى أن نسمع البعض منها في هذا اللقاء.